

لوجدنا ان السياب يلقي زهرة ، وغيره يلقي فراشة ، اما البعض من شعرائنا المرموقين فيلقون « قاموسا » . ان الام ليس اميبا تكتشف في المختبر ، كما انه ليس قبعة تنكس على الرأس ليراها الجميع ؛ انه سحب تظفر في الاغوار القصية من بيدا الدم ، وليس المفروض بالفنان ان يكون قاتلا حتى يكون مثالا . فالبصيرة الشاقبة يمكنها ان تدل بالاصبع على الطائر المنهك والياثس ، حتى ولو كان فوق كل الرفوف وفي مقدمتها . هناك حالات معينة يؤدي فيها ضغط الآلام البشرية الى ارتخاء في مفاصل القصيدة ، الى توتر وسأم في ملاحظها ؛ والآلام التي تعرض لها السياب (فقره ، مرضه ، بؤسه) تفقر له الكثير من هذه النتائج ، وتجعل قصائده الاخيرة براء من اي منهاج نقدي مسبق ، مع العلم ان تاريخ الفن سيكون اشد صرامة وسادية في تقسيمه لاية انجازات في المستقبل .

ولكن ما هو الشيء الذي يغفر لبعض شعرائنا المرموقين كون قصائدهم دائما وابدا متوترة الاعصاب ، جاحظة العينين ، موججة الساقين ، حتى ليكاد بطنها يلامس الارض ، دون ان يكون على ظهرها شيء او ان تكون حبل باي شيء ؟

وانصافا للموتى ، وتنسيها للمحتضرين والاحياء ، نقول : لو اعتبرنا الفن ضريبة يدفعها الفنان عن حبه وكرامته ، وسخطه وغبطته ، وغرته ووطنه ، لكان السياب من اكبر دافعي الضرائب في شعرا الحديث ، ولكان بعض شعرائنا المرموقين من اكبر جباة الضرائب في شعرا الحديث .

محمد الماغوط

ديوانه الاخيرة

من يخاف بدر شاكر السياب اليوم ؟ لا احد . لقد اكتشف السياب فجأة - بعد موته - ان له اصدقاء كثيرين . حتى ان واحدا من الداعائه ومنافسه كان سباقا عشية وفاته ليقف معلنا في تصريح صحفي له ، ان بدر كان شاعرا كبيرا . وضحك وجه بدر الطويل الشاحب النحيل من هذا الانعام الكبير . فما فائدة هذا الوسام الماسوني الجزيل الاحترام على غدة سوداء كبيرة يحملها صبي يتيم من « جمعية الرفق بالاداء الموتى » ، في موكب هزيل ، لشاعر كان محسوبا في عداد الاموات منذ سنوات ، لم يشأ الطبيب ان يحور شهادة وفاته الامنذ حوالي شهرين ؟ ربما ، لا شيء . الا التأكد من ان هذا الوسام لم يمنح لحى ابداء . ان الموتى لم تعد تخيف احدا في هذا العصر .

ولعل موت بدر شاكر السياب قد اصبح ضرورة ملحة في السنوات الاخيرة ، من اجل الشعر وتاريخه ، ومن اجل بعض « اصدقائه » الشعراء بالدرجة الاولى . لقد زال الكابوس الذي خيم فوق صدور اصدقائه ، وانتهى النزاع على قصب السبق في زعامة الشعر العربي الحديث ، في مضمونه « الجديد » ومضمونه « العربي » . واصبح من الممكن اليوم ان يسمى « كبيرا » فقط . لقد سقط من الحلبة غريم قوي ، ونقص عدد الطامحين للمجد .

لا يهم اليوم ان يسمى السياب رائدا وعظيما وسباقا ، وقد مات بدر . ومن سيذكره بعد سنة ؟ يقولون (او يتمنون) : لا احدا ! المهم اليوم ان يقال عن الذين كانوا يقاسمونه منافسة « المجد » انهم عظماء ورواد ، وقبل كل ذلك انهم شعراء . ان موت بدر قد وضمهم كلهم امام محك التجربة الخطرة الاولى . وجاءت نهاية بدر شاكر السياب الملحاحة الضرورية ، في وقت ولا انسب منه . لقد مات في اليوم الذي صدر فيه ديوانه الاخير ، « شنشيل ابنة الجلبي » . لقد كان لا بد ان يموت من اجل هذا الديوان .

فقد حمل اجل واروع واحسن ما كتب السياب في عمره القصير . وكان من الصعب ان يتجاوزه . لقد كان شعرا عظيما .

لقد كان بدر يعرف انه سيموت ، ويعرف من يدعوه للحاق به . انما كان ينتظر من يدق عليه الباب ليؤخر رحيله . ولكن كانت امه تدعوه ان يلقاها في المقبرة الشكلي ، وان يقتحم الليل جوعان معها ، من دون رفيق ليأكل من زادها . ودرب بدر نحو امه درب موحش ، فلا اصدقاء ، الا مرضه وقدماء العاجزة ، والمكان ناء ، وبينه وبينه مدن وصحارى وبحار .

وينطلق السياب وراء امه ، يبحث عنها ورا سور من حجارة عتيقة ، لا باب فيه ولا نوافذ يدق عليها ، ولا درب يعود منه . ينطلق الشاعر بلا وداع ، فالصغار يولولون ، يسألون عنه ، وينتظرون عودته . وتبدأ ليالي السهاد ، من لندن الى باريس ، نهاية بالعراق . وينتظر السياب النهاية التي ما عاشها شاعر من قبل . لقد كان يترصّد الموت ويراه ويسير نحوه ويكتب عنه شعرا .

من لندن يرسل صيحته العطشى ، « ماء ... اين الماء » . ومن خلال عطشه لرفيق او جار ، في الضباب المغمى كان يظن كأن الصبح قد اشرق في العراق ، وتترامى له جيكور من بعيد ، لحى الشيوخ تضيه واعين النسوة تحقد .

وفي باريس ، تنسل اليه الذكريات كالعبير ، طيفا مزمننا لاحلامه ، لا يذكر منها الا وداعها ، القاصم المشترك الوحيد بينهما . وتعيد باريس اليه عمر الطفولة ، وهو على ابواب الشلل الابدي . تذكره « بوفية » و « اقبال » ، معيدة عمره سنينا الى الوراء .

ويصل العراق ، ارضه وبلده ووطنه ، ليعود لمعاينة قضيته . تذكره عودته بماضيه ، بطفولته الشقية وشبابه المفجوع . كيف كان يجوع الاطفال ويظل يحلم هو بالقمر والهوى . ويتمرد انسان شبابه على البنادق والخوذ ، على كل انواع العبودية ، حتى يزدحم دربه بالمسكر ، ويعرف الجوع والرعب . ويمضي بالامى عامان ، حتى يهده الداء ويعلمه الحديد بين مستشفى ومستشفى ، يعود بعدها الى بلاده ، يحمل جنازته ليعيش اعواما من الحرمان والفاقة قبل ان يمضي في طريق النهاية .

وبين هذه البلدان الثلاثة يحدد السياب خطوط مراحل مرضه كلها . ومن خلال مرضه ، مراحل حياته ، حين تركزت في نهاية حتمية نحو الموت الذي انتظره اعواما ، فتوضعت هذه الرؤيا ، واعاد من خلالها تحديد مواقفه المتعددة من الحياة وهو على شفير الموت الحتمي . لقد كان الشاعر الاول الذي كتب عن الموت وهو يراه بعينه يزحف نحوه .

ومن ليالي السهاد ، وريح الشمال تحرفه نحو النهاية الحتمية ، لقد كان يرى رؤيا لا وضوح بعدها ، كيف سيخلو البيت منه . ولكن جيكور كانت دائما هناك ، مرتع صباه وحبه الاول والاخير . جيكور اشجارها دائمة الخضرة ، وليلها لا ينام ، وشاعرها يغني كالطيور .

ويستعيد مع المرض ذكريات حبه الاول ، وينساق وراء اعتراف بان كل الذين احب في الماضي ، ما احبوه ، وقد اضاع عمره يبحث بين اكوام المحار عن لؤلؤة ، لعلها تبزغ كالنجمة ، وتقدمي يديه وتنزع الاظافر عنها ، ولا ينز هناك غير الماء والطين .

وتثقل به الذكريات في فراشه الحديدي في لندن ، مطلا من وراء ذكرى ابيه وجيكور . فيودع زوجته ويعود لجيكور امه ، ولكنه يعود هذه المرة كسيحا ، وكيف يمشي ، وقد مزق الداء قدميه ؟ كعمود ملح يسير ، مشبها اياها بسدوم وعامورة .

هذا هو جو بدر شاكر السياب . وهنا منطلق « شناسيل ابنة الجلبي » . من المرض ، ومن الجرأة الحتمية في الموت ، ومن الانطلاق الى ابعد حدود الانسانية ، استطاع ، في آفاق شعرية لم يصلها من قبل ، ان يخوض في تجارب رائعة في الشكل والاطار الشعري . لقد وقف بثقة تامة امام اجرا تجربة شعرية جديدة في الشعر الحديث . كان المضمون انسيابا تلقائيا للفكرة التي كانت تلح عليه ساعات حياته الاخيرة ،

فكان فنانا يقول كيفما اراد قلبه الشعري . والثقة التي كتب بها بدر ديوانه الاخير تكاد تعادل يقينه بحتمية المضمون الذي اختاره له ، وبحتمية وصوله اليه . وبقدر ما شلت قدماه ، ازداد شجاعه ، ووقف كبيرا ، بين اقزام جبناء من شعراء قلدوه ، وتجارب اجهضت من التردد والخوف .

بدر في « شناسيل ابنة الجلبي » كان انسانا ، وكان شاعرا . وهذه قمة لم تصل اليها حبال مراوغة الشعراء الآخرين المتطاولين . فحباهم الشعرية غير مجدولة بالاصالة الانسانية وبالنبوة الحريئة المخلصة . فبين دواوين بدر العديدة ، تبقى المسافة التي قطعها بين « انشودة المطر » - مجموعة مختاراته الشعرية الكبرى سنة ١٩٦٠ - وبين « شناسيل ابنة الجلبي » مسافة قلما يجتازها شاعر في اقل من خمس سنوات . في « انشودة المطر » كان بدر قد بدى يمشي على ارض صلبة ، يطل على الدنيا كشاعر حديث يحمل قلبا جديدا ، يهيم ان يتقن حرفته كصانع ماهر في محترف الصياغة الشعرية الجديدة . وبقي هناك في القمة ، منتقلا بين منحدرات « كمزول الاقنان » و « المبد الغريق » ، حتى وصل الى « شناسيل ابنة الجلبي » . وهنا كانت مهارته الصناعية قد بلغت من الثقة والرونة والدقة ما جعله يدخل في مغامرة شعرية ، هي من اقصى وامتع وافجع ما عرفه الشعر العربي الحديث في العشر سنوات الاخيرة .

غير انه بقي بين هاتين العلامتين الفارقتين ، شاعرا مفتونا بالموت . فقد كان الموت اسطورة حياته التي املت عليه - طوال عمره - الحاحا مخيفا . ومن هنا تردد صدى الاساطير في قصائده ، وكان من اول من دخلها في الشعر العربي الحديث . فكانت رموز الموت ومعانيها تتجسد في تجارب حية ومواضيع مختلفة يعينها الشاعر ويعايشها . وكان استخدامه لاسطورة سيزيف مثلا في « رسالة من مقبرة » (في ديوانه « انشودة المطر ») من ابرع ما حققه الشعر العربي المعاصر في الاستعانة بالمضمون الاسطوري ، للتعبير عن فكرة الثورة والقيامة . وتركزت الاسطورة ، لتصبح جزءا من مناخه النفسي وثقافته الشعرية ، ولتصبح مطواعة في يده ، فيستخدم جانبها الشعبي ، كشناسيل ابنة الجلبي . والقارئ الذي يرافق الشاعر يشعر بانه امام رمزين دائمين : الموت ، والقدرة على الانتصار عليه ، فضلا عن طموحه بان يلج باب الحياة والخصب في الحياة عن طريق باب الموت . فهو شاعر مفتون بالموت الى درجة الطفولة الساذجة .

غير ان بدر شاكر السياب ، في انشغاله بقضايا الصغيرة الخاصة ، عن طريق اقتحام الموت ، لا ينسى - ولا يريد ان ينسى - ارجاء عالم الانسان الواسعة ، الممزقة ، وقضاياه الحزينة ومشاكله الاجتماعية . و « جيكور » ، عبر امه وزوجته وولده ، في « شناسيل ابنة الجلبي » « كبوب » في « انشودة المطر » . وبوب نهر جيكور ، يدفعه حبه للفناء ان يموت غرقا فيه ، حيث يصبح موته انتصارا . وموته في اعتقاده قربان على مذبح عالم بعيد عن الدموع والدماء ، حيث للانسان كرامة ، وللانسان حق وقيمة ، وحيث الكفاح قدر . فالاسطورة في « شناسيل ابنة الجلبي » من حكايات شعبية واخرى جاهلية ، « كارم ذات العماد » ، تتسلل بشكل غير مرئي ، ولا تبرز بشكل حسي ابداء . فهو يفترض الاسطورة افتراضا كجزء من عطائه الشعري ، وتراثا اصيلا في عمقه الفكري والنفسي .

وتقرأى له جيكور من خلال امرة الحديد بين مستشفى ومستشفى دائما ، حيث كل شيء فيها هاديء وحزين . فجيكور رمز لحياة الصبا والهناء والبساطة والهدوء ، التي يطمح ان يعود اليها ، ويتسكع في دروبها اللتوية الصامتة . فهي رمز الحنين الاول . ويموت بدر الشاعر ، حاملا بين جنبه قلبا يفيض بالشوق الى قريته الوادعة الغافية ، ويقص بالامس لموته منقيا بعيدا عنها . لقد كانت حبه وطموحه الاول والاخير .

وتضع سطور « شناسيل ابنة الجلبي » خاتمة رائعة لحياة بدر شاكر السياب ، كشاعر عملاق ناطح وشموخ رأسه علىاه الشعر ، وبقي « اصدقاؤه » الشعراء ، من الذين اكتشفوا اصدقاؤه فجأة بعد موته ، مجرد حملة لبساط الرحمة في موكب الموت المهيب ، بأوسمة مزيفة لن تبيح لهم دخول ملكوت الشعر الحقيقي .

رياض نجيب الرئيس